الفصل السابع:

عندما جئت إلى دمشق قبل خمس سنوات كان مستشاري الرئيسي وصديقي ـ وهو صديق سوف يأسف لموته العديد من الرحالة الذين يزورون سوريا، السيد لوتيك ـ (رئيس المصرف الذي يحمل نفس الاسم، وقنصل ألمانيا الفخري). وكانت ملاحظة عابرة منه قد كشفت لي المكان الذي مثلته هذه المدينة، ومازالت تمثله في التاريخ العربي. قال: «أنا مقتنع أن في دمشق وما حولها يمكن أن ترى أفضل السكان العرب من أي مكان آخر، فهم أحفاد الفاتحين الأصليين الذين جاؤوا مع الموجة الأولى للفتح الإسلامي، وقد حافظوا على أصولهم العرقية نقية تقريباً».

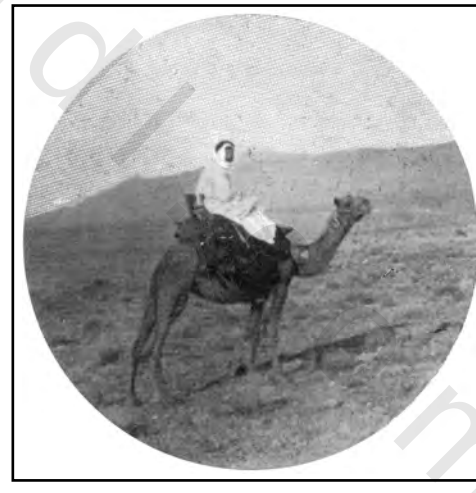

٦٨ ـ في الصحراء التدمرية

تعتبر دمشق أكثر من أي مدينة أخرى عاصمة الصحراء. فالصحراء تمتد حتى أسوارها وتهب أنفاسها مع كل نسمة ريح، وتعبر روحها عبر بواباتها الشرقية مع كل قائد جمل. ولمشايخ القبائل الغنية في دمشق منازلهم الخاصة. فأنت يمكن أن تشاهد محمد شيخ قبيلة الحسنة أو بسام آل رشيد شيخ شمر يمشون تيهاً في أسواق دمشق في يوم جمعة ظريف بعباءاتهم المطرزة وحطاتهم الأرجوانية والفضية مثبتة فوق جباههم بِعُقّلٍ من وبر الجمال قد لفت بخيوط

الذهب، وهم دائماً رافعو الرؤوس بكبرياء، سادة القفر والبيداء، هؤلاء يخطرون بين حشود يوم الجمعة ينتظرون أن يفسح لهم الطريق كما لو كانت دمشق هي مدينتهم الخاصة، وهي كذلك؛ لأنها كانت أول عاصمة للخليفة البدوي خارج الحجاز، وهي تحافظ وتتذكر أعظم التقاليد والأعراف العربية، لقد كانت أول المدن العالمية المعروفة تقريباً التي سقطت بيد فرسان الصحراء، الذين لا يقاوَمون والذين دعاهم محمد لحمل السلاح وأعطاهم هدفاً وشعاراً للمعركة، كما إنها المدينة الوحيدة التي بقيت ذات أهمية تحت حكم الإسلام كما كانت تحت حكم الرومان[1]. وقد جعلها معاوية عاصمة له وبقيت المدينة الإسلامية الرئيسية حتى سقوط الحكم الأموي بعد تسعين سنة. لقد كانت آخر العواصم الإسلامية التي حكمت طبقاً لتقاليد الصحراء. لقد وضع القادة العسكريون الفرس أبا العباس السفاح على عرشهم في الهلال الخصيب، وكانت التأثيرات الفارسية والتركية مسيطرة في بغداد، وعن طريقهم جاءت عادات الشرق القاتلة التي لم تعرفها الصحراء، ولم يعرفها الخلفاء الأوائل الذين كانوا يحلبون أغنامهم بأيديهم ويقسمون الغنائم بين المؤمنين. وقد دمرت النتائج المنبعثة من البيئة الفاسدة جداً في ما بين النهرين قيم الرجولة. وانبعثت أشباح قصور البابليين والآشوريين المتآمرة من قبورها قوية وشريرة لتطيح بجند الخليفة وتجرده من سلاحه، ولتقيد يديه وقدميه بخيوط من

(١) لم يكن العرب المسلمون غزاة دائماً، كانوا محررين لبلاد الشام من الاستعمار الروماني اليوناني، كان سكان بلاد الشام يتكونون في معظمهم من الشعوب العربية التي خرجت على مر التاريخ من الجزيرة العربية مثل الآراميين والكنعانيين والأوغاريتيين والآدوميين والأنباط والتدمريين والغساسنة، ولم يكن الرومان إلا قشرة خارجية مستعمرة مثلهم مثل الإنكليز في الهند ومصر إلخ. ولم يتركوا أي جذور حضارية ذات طابع ثقافي، تركوا أبنية ومنشآت وهي خاصة بهم، شأنها شأن المنشآت التي أشادها المستعمرون في الشمال الأفريقي وفي الهند، والتي لا ترتبط بأي جذور ثقافية بالشعوب المستعمرة. (المترجم)

ذهب، وكانت دمشق بريئة منهم. كانت دمشق تغتسل برياح الصحراء النظيفة وقد حكمت إمبراطورية الرسول بالروح الإسبارطية القوية للأيام الأولى، لم تكن محدثة النعمة مثل العواصم التي قامت على الدجلة، لقد سبق ورأت ملوكاً وأباطرة داخل أسوارها وتعلمت الفرق بين القوة والضعف والطريق الذي يؤدي إلى السيطرة والآخر الذي يؤدي إلى العبودية.

٦٩ ـ الجامع الكبير بدمشق (جامع بني أمية) وأسطحة السوق من القلعة

عندما وصلت إلى دمشق حييت تحية ممزوجة بالأخبار بأن رحلتي إلى حوران قد أثارت على نحو معتبر فكر نسيم باشا والي سوريا. ويجب أن يسجل الآن أن هذا الرجل، الكثير الخبرة، والكثير التهذيب قد شعر بالغيظ ليس بسبب ظهوري المفاجئ في صلخد فقط ، في وقت كان يغط في نومه، ولكن في تركي المنطقة قبل وصول جاسوس يوسف أفندي، وقد ارتأى بعضهم

أن السبب الحقيقي لانزعاج جنابه المفاجئ كانت رغبته في تجنب أن يكون موضوعاً في مذكرة الأرشيدوق سيرج، وإذا كان ذلك كذلك فقد أرسل لي في يوم وصولي رسالة مهذبة يعبر فيها عن أمله بأنه سوف يكون مسروراً بالتعرف إليّ. أعترف إن إحساسي الأولي كان شعوراً بالندم عندما أذن لي بدخول القصر الجديد الكبير الذي بناه الوالي لنفسه في نهاية الصالحية، وهي ضاحية دمشق التي تمتد على طول سفح الهضاب العارية في شمال المدينة.

كان لدي رغبة كبيرة بالاعتذار أو أن أبرهن له بأي وسيلة أن لا ينظر إلي كعدو كائد. وقد تعززت هذه المشاعر باللطف الذي استقبلني به والإحساس بالاحترام الذي ينفح به أولئك الذين يفدون للتعرف إليه، وهو رجل ذو مزاج عصبي خاص جاهز دائماً للتدخل لحل الصعوبات التي لا تقصر ولايته على وضعها أمامه، وهو حي الضمير، وأنا أظن بكل تواضع، قلقة وبألم بأن التوفيق بين المصالح المتعارضة لا يمكن مزجها مع بعضها بسهولة إلا كما يمزج الخل مع الزيت. إنه ينظر بطرف عينه باستمرار إلى سيده السلطان الذي يحرص بأن يكون شخصاً متميزاً مثل نسيم باشا بعيداً عن شواطئ البوسفور على نحو معتبر.

إن للوالي ثماني سنوات في دمشق ومدة الولاة المعتادة خمسة، وقد وطد عزمه بوضوح على البقاء في دمشق؛ لأنه قد بنى لنفسه بيتاً كبيراً أحاطه بحديقة جميلة، هذا التخطيط الذي يصرف ذهنه ـ دعنا نأمل ـ عن المشاغل الكثيرة التي نادراً ما تكون سارة.

وأحد العوامل التي توجب بقاءه اهتمامه النشط بسكة حديد الحجاز التي يهتم بها السلطان أقصى درجات الاهتمام وما لم يتم بناؤها أو يصرف النظر عنها فهو مفيد بما يكفي للاحتفاظ بمنصبه(*).

والرأي العام في السوق لا يعتقد أن المشروع سيهمل على الرغم من معارضة شريف مكة وعشيرته الذين لم يقتنعوا أبداً بحق السلطان بادعائه أنه خليفة المسلمين، ولا يريدون أن يصبح على تماس مباشر مع مكة عاصمة الإسلام، والسوق يساند السلطان ضد الشريف وضد كل مسانديه سواء أكانوا ملحدين أو متدينين.

إن المطحنة التركية تطحن ببطء، ولكنها في النهاية تطحن قليلاً وبشكل خاص عندما يكون القمح المعد للطحن الطبقة الأولى من القبائل العربية الهشة بشكل خاص بحسدهم وارتيابهم وادعاءاتهم. والسياسة التركية تشبه وتتمثل ما قاله عمرو بن كلثوم:

متى ننقل إلى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقي نجد
ولهوتها قضاعة أجمعينا
نزلتم منزل الأضياف منا
فأعجلنا القرى أن تشتمونا
قرريناكم فأعجلنا قراكم
قبيل الصبح مرداة طحونا

(*) بعد كتابة هذه الرسائل دارت عجلة السياسة وأنزلته إلى القاع وهو الآن يشغل مركزاً ثانوياً في جزيرة رودس. (المؤلفة)

٧٠ ـ سوق الحبوب

ورغم أن لنسيم باشا ثماني سنوات في سوريا إلا أنه لا يتكلم اللغة العربية، ونحن في أوربا عندما نتحدث عن تركيا نتحدث عنها وكأنها مملكة تتكون من أصل واحد، مثلما لو تحدثنا عن بريطانيا باعتبارها تتضمن الهند وبرما والولايات الثانية وهونغ كونغ وأوغندا. فيما يتعلق بالأراضي التي يسكنها الأتراك فقط لا تمثل ما يسمى بالدولة التركية، فالمناطق التي تسكنها أغلبية تركية هي عموماً ضئيلة.

وبالنسبة للمناطق الواقعة تحت سلطته في سوريا ـ حيث الأتراك نادرون ـ فإن وضعه يشبه أن يكون حكماً أجنبياً بمساعدة قبضة من الجنود وخزينة خاوية، مجموعة مختلفة من الأشخاص المعادين له والمتعادين مع بعضهم بعضاً.

وهو غير ملم بلغتهم. ومما يتنافى مع العقل توقع أن يكون منسجماً مع طموحاته السياسية والدينية التي أصبحت معروفة عنه بين حملة البنادق. وإذا حدث وتوجه الرصاص كما يحدث غالباً نتيجة لعصيان مسلح من أقليم

عاص في الولاية ضد أقليم آخر عاص في نفس الولاية فمن غير المرجح أن يشعر بالأسف كثيراً لضياع الأرواح نتيجة لذلك، وهو عندما يترك بحاله يهتم ويرتاح لتطبيق القانون والنظام.

وإذا أنت لاحظت التنظيمات الداخلية لقرية تركية سوف ترى أن التركي يعرف كيف يخضع لقواعد الإدارة والسلوك وكيف يطيعها وينفذها. وأنا أعتقد إن أفضل موظفينا من المواطنين في مصر هم من أصل تركي الذين جلبوا وعينوا من أجل تطبيق التنظيم الجديد، ويتمتعون بالشعور الطيب والموهبة الطبيعية، هذا التنظيم الذي لم يفهموا هدفه تحت الحكم السابق. لقد برهنت الطبقات العليا في السلطة الحاكمة في الإمبراطورية العثمانية على فسادها.

والطبقات العليا ممتلئة بالإغريق والأرمن والسوريين، وشخصيات من أمم مختلفة ينظر إليها في الشرق بشكل عام بنوع من عدم الاحترام والثقة (ليس بدون سبب)، والحقيقة أن هؤلاء الرجال الذين يبدو وكأن وصولهم إلى القمة أمر لا يمكن اجتنابه هم السبب الحقيقي للفشل التركي. إنه لا يستطيع أن يحكم مناطق واسعة على أنه يستطيع أن ينظم جمعية في قرية، وفوق كل هذا لا يستطيع أن يحكم بلاداً غريبة، ولسوء الحظ إنه يؤتى به إلى مناطق بعيدة مرة بعد أخرى للاحتكاك بأمم غريبة. حتى رجاله التقطوا عدوى التقدم.

فالإغريق والأرمن أصبحوا تجاراً ورجال مصارف، والسوريون أصبحوا تجاراً ومالكي عقارات، لقد وجدوا أنفسهم محاطين في كل نقطة بعراقيل من قبل الحكومة، إن الأمة الغنية تتألف من أشخاص أغنياء، ومع ذلك وبسبب كل إخفاقاته لا يوجد أحد رغب أو سيرغب أن يحل محله، وبسبب هدفي الحالي

في أن أتحدث فقط عن سوريا، وهي الإقليم الذي أعرفه أكثر من غيره. ما قيمة جمعيات الاتحاد العربي، والكراسات الملتهبة التي يصدرونها في مطابع دور النشر الأجنبية. الإجابة سهلة.. إنهم لا قيمة لهم على الإطلاق، لا يوجد شيء اسمه الأمة العربية.. فالتاجر السوري يفصله عن البدوي مسافة أكبر بكثير من تلك التي تفصله عن العصملي (العثماني)، فسوريا تسكنها أعراق تتكلم اللغة العربية وكل واحد منها توّاق للإمساك بخناق العنصر الآخر، وما يمنعهم من إتمام رغباتهم الطبيعية هذه هو خوفهم من الجندي العثماني الجائع الذي يرتدي أسمالاً، ويقبض رواتبه من خزينة السلطان بفترات غير منتظمة نادرة. وهذا الجندي ـ سواء أكان كردياً أو شركسياً أو عربيًا من دمشق ـ ذو قيمة طيبة أكبر بكثير من الرواتب التي يتلقاها. قد تتمرد جيوش أخرى على حكوماتها و قادتها ولكن الجيش التركي سيبقى إلى جانب السلطان[1].

جيوش أخرى قد تنهزم أمام المعاناة والحرمان والمرض الذي لا يعالج، ولكن جيش السلطان سوف يبقى محافظاً على التقدم إلى الأمام مادام يستطيع الوقوف، ويقاتل مادام في يده سلاح، ويحتل ويقهر مادام لديه قواد. لا يوجد مشهد أكثر روعة ولا إثارة للشفقة أكثر من منظر قطعة عسكرية تركية أثناء المسير؛ شباب ملتحون مكسوون نصف كسوة، سيئوا الهندام وغالباً حفاة، مضغوطون ومتعبون ولكن لا يُقهَرون، دعونا نحييهم هكذا وهم يمرون، وفي الأيام التي كانت فيها الحرب فناً أكثر مما هي عِلم، كان الجيش التركي هو القوة التي قهرت العالم.

(١) بعد سنة من طبع هذا الكتاب تمرد الجيش التركي فنى، وأجبر السلطان على إعلان الدستور، وبعد سنة من ذلك في عام ١٩٠٩ خلع الجيش التركي السلطان عبد الحميد وعين بدلاً منه السلطان رشاد خلافاً لثقة المؤلفة. (المترجم)

٧١ ـ قبة الخزنة

ولكني تركت حاكم سوريا ينتظر طويلاً، تكلمنا من ثم باللغة الفرنسية التي كان يلم بها إلماماً ضعيفاً، وكان ثمة رجل سوري لطيف يشرح له بين الحين والآخر وباللغة التركية بعض غوامض وأصول اللغة الفرنسية، كان السوري صاحب

أطيان ماروني، غني من لبنان، كان على علاقة حسنة مع بيت الحاكم مع أنه قد خرج حديثاً من السجن الذي أمضى فيه سنة واحدة، وقد رافقني خلال كل زيارتي، وقد طلب منه الوالي أن يكون دليلي السياحي في تجوالي هنا وهناك، كان اسمه سليم بك.

وقد دار الحديث بشكل رئيسي عن الآثار وقد أصررت وعلى نحو متعمد أن يكون حديثي حول اهتمامي بهذا الموضوع مقارنة بالسياسة أو الجبل أو الصحراء، وبذلك تجنبنا أي إلماح جدي لهذه الموضوعات. كان الوالي الدماثة نفسها، وقد أهداني صوراً لمخطوطات معينة لا تقدر بثمن لقبة الخزنة في الجامع الكبير، وقد أغلقت الآن إلى الأبد أمام المتفرجين، ووعدني أن يعطيني بقية المجموعة.

وفي نهاية الزيارة انحنى انحناءة احترام، وأخذ مني عنواني باللغة الإنكليزية، وسجله بعناية في كراس، ولن أحتاج إلى القول إن ذلك كان آخر عهدي بالموضوع. وحالاً أعلن الوالي أن زوجة الباشا وأطفاله ينتظرون زيارتي، وتبعته إلى الطابق الثاني إلى غرفة مشمسة بنوافذ مفتوحة على شرفة يمكن منها رؤية دمشق كلها، وحديقة المنزل والهضاب الواقعة خلفه. ولم يكن هناك إلا زوجة الباشا وهي امرأة جميلة دقيقة الملامح من أصل شركسي (ولكن كان هناك زوجة أخرى توفيت قبل سنة تقول الشائعات إنها كانت المفضلة). كان الأطفال جذابين.

وقد أنشدوا قصائد بالفرنسية أمامي، وكانت عيونهم تتحرك بسرعة استجابة لأي تعبير عن الاستحسان أو الإحساس بالمتعة يصدر عني، وقد عزفوا بالإيقاع رقصات بوهيمية وهم جالسون. منتصبوا القامة أمام آلة

العزف وذيول ستراتهم السوداء متدلية خلف ظهورهم المخملية. ووقف الباشا أمام النافذة يبتسم لهم بابتهاج. ودخنت الزوجة الشركسية سجائر وكانت تنحني محيية كلما التقت عيناها بعيني. وكشر ولد أسود رقيق كان واقفاً عند الباب تكشيره من الأذن إلى الأذن عندما أنهى سادته وسيداته الذين هم في نفس الوقت زملاؤه في الدراسة واللعب عزفهم الموسيقي. وخرجتُ من الغرفة بانطباع مبهج، وابتسامات حلوة مهذبة، وذكاء لماح، وعبّرت عن سروري للباشا عندما كنا نهبط الدرج.

٧٢ ـ التكية النقشبندية

«آه» قال بتهذيب شديد: «لو كنت أستطيع أن أعلمهم اللغة الإنكليزية ماذا تفعلين؟ نحن لا نستطيع الحصول على مربية إنكليزية تتلاءم مع عاداتنا، وليس لدي إلا السيدة الإغريقية التي رأيتها لتعلمهم اللغة الفرنسية».

وقد لاحظت في الواقع المرأة الإغريقية، امرأة من الطبقة الدنيا، صغيرة الجسم، والتي لم يكن ما تتحمله في الطابق العلوي للأسرة السعيدة يفر من الملاحظة. ولم أبطئ بالإطناب بلغتها الفرنسية الرائعة ـ ليسامحني الله ـ وهز الباشا رأسه.

«لو أستطيع الحصول على امرأة إنكليزية» قال.

ولسوء الحظ لم يكن لدي ما أقترحه للمراسلة، كما لم يبدو عليه أنه يرحب باقتراح.

قبل أن أترك وصل شخصان بارزان لمقابلة الوالي، كان الأول بملامح شبه زنجية ولكن نظرته وعراقة محتده لا تخطئها العين، كان الأمير عبد الله باشا بن الأمير عبد القادر الجزائري الكبير من أمة زنجية، وكان الثاني الشيخ حسان النقشبندي خليفة الطريقة النقشبندية. وكنت قد تحدثت تقريباً عن فرقة إسلامية مستقيمة مشهورة في دمشق حيث تقع تكيتها الرئيسية.

«التكية الآن مؤسسة دينية يقيم بها المتصوفة الدراويش وغيرهم من الأشخاص المباركين، تشبه الدير إلى حد بعيد، ولكن لا يوجد نذر بعدم الزواج مفروض على المنتسب القاطن في التكية، ويستطيع أن يتزوج النصاب الشرعي من الزوجات مثل من يعيشون خارج التكية».

وحسان نفسه لديه أربع زوجات وتبدو كل علامات ذكاء ومكر الكاهن واضحة من سيماء هذا الرجل البارز، ولم أكن أعلم أن ذكاءه بارز بشكل خاص. ولكن انعدام ضميره يجب أن تدعم أي نواقص. كما أن ابتسامته قد تعطي فكرة خاطئة عنه، وقد يؤدي لقاء هذين الشخصين الهامين إلى الدخول

إلى المجتمع الدمشقي. وقد قدم كلاهما دعوة حارة لي لزيارتهما في منزليهما في التكيــة أو أي مكان أرغب، وقـبلت الدعـوتين ولكني ذهبت إلى الأمـيـر عـبدالله في البـداية، أو لنقل إنني ذهبت في البـداية إلى منزل أخيـه الأكبـر الأميـر علي باشـا؛ لأن فـي هذا المنزل كان يعـيش الأميـر عـبد القـادر، وهناك حـمى وآوى أثناء الأيام السـوداء لمذابـح عـام ١٨٦٠ ألفـاً من المسـيـحيين وقـد

٧٣ ـ مدخل التكية السليمانية

حيكت حول شخصه قصص عاطفية،حول شجاعته ونبله ووطنيته، وتوجت هذه القصص بالحكمة والعمر المليء بالاحترام والإحساس بالمسؤولية مع القوة المستندة إلى الثروة، حيث تمتلك أسرة عبد القادر كل الحي الذي يقطنون فيه، والمنزل مثل كل المنازل الدمشقية الكبيرة لا يبدي أي منظر متميز من الخارج.

ودخلنا عبر باب صغير في زقاق ضيق ملتوٍ عابرين ممراً مظلماً ينعطف بزاويتين لنجد أنفسنا في فناء رخامي مع بحيرة ماء ينبع من قلبها الماء في الوسط وحولها أشجار البرتقال، وكانت كل الغرف الكبيرة تنفتح على هذا الفناء، وبدت الأبواب واسعة بالنسبة لي. وقدمت القهوة والحلوى بجانب غرفة الاستقبال المصقولة، في الوقت الذي كنت أبدي إعجابي بزينة الجدران والماء الذي ينبع عالياً في حوض من الرخام، ثم يجري بعيداً في أقنية رخامية. وهناك وفي معظم القصور الدمشقية يوجد في كل نافذة مجرى ماء مقرقر بحيث أن الهواء عندما يهب عبر النافذة يجلب معه رطوبة منعشة. لم يكن الأمير علي في المنزل، ولكن وكيل أعماله الذي يبدو كتشريفاتي القصر، ويتمتع بالسلوك العائلي الجدير بالاحترام، والتابع الشرقي يعرف جيداً كيف يتلوى أثناء عرض كنوز وتحف سيده، السيف المحلى بالجواهر الذي أهداه نابليون الثالث للأمير عبدالقادر، بنادق عبدالقادر وسيفان ثقيلان محليان بالفضة أرسلا السنة الماضية هدية من عبد العزيز بن رشيد. وقد علمت أن هناك صداقة تقليدية بين العائلة الجزائرية وسادة حايل. وأرانا كذلك صوراً للأمير عبد القادر وهو يقود فرسانه، وصوراً أخرى للأمير في قصر فرساي وهو يهبط الدرج مع نابليون الثالث يشق طريقه وكأنه هو الرجل الذي ربح الحرب وليس الرجل الذي خسرها، ثم صورة للأمير بعد أن أصبح مُسنّاً في

دمشق، ودائماً في ثوبه الجزائري الأبيض الذي لم يتخلى عنه. ودائماً بنفس المظهر الرائع الوقور الرزين.

وأخيراً مررنا فوق جسر صغير فوق جدول من الماء خلف الفناء الرئيسي، فدخلنا حديقة مزدانة بالبنفسج، عبرنا منها إلى زريبة الخيل المضيئة والمهواة والجافة كأحسن مزارب الخيول الأوربية. وكانت تقف بجانب المزاود فرسان عربيان بديعان من خيول الرولا الأصيلة، وبغل أصيل لا يقل قيمة عن الفرسين، وكان ثمة رجل حزين المظهر رافقنا في جولتنا هذه مع أنه لا يبدو عليه أنه ينتمي إلى المجموعة، كان وجهه كئيباً جداً بحيث لفت انتباهي وقد سألت سليم بك عنه. «مسيحي» قال: من عائلة غنية اضطر لتغيير دينه وبحث عن ملجأ عند الأمير علي. ولم أسمع أكثر عن قصته، ولكنه يثبت الصورة في الأذهان عن منزل الأمير عبدالقادر كملجأ وملاذ باعتباره منزل نبلاء، يحرسه خدم أقوياء أوفياء يقدم الراحة في الحياة والحماية للبؤساء.

ذهبت في صباح اليوم التالي لزيارة الأمير عبدالله الذي يعيش في منزل مجاور لمنزل أخيه، ورأيت هناك ابن أخ آخر للأمير عبد الله اسمه الأمير طاهر، وقد قوبلت زيارتي بترحيب كبير وارتياح؛ لأنه اتفق وكان عندهم ضيف متميز كنت بدون شك توّاقة لرؤيته، هو الشيخ طاهر الجزائري وهو رجل معروف بسبب علمه وطباعه الحادة وأفكاره الثورية السياسية.

كنا جالسين مجتمعين في الغرفة التي قد فرشت أرضها بالبسط وجوانبها بالأرائك عندما دخل كالعاصفة وأجلس نفسه بجانبي وقرع أذني وآذان الجالسين بالجوار؛ لأنه كان يتكلم بصوت عال، كان متألماً بسبب عدم دعوة الوالي له للاتصال بحرية بالأجانب الموهوبين مثل علماء الآثار الأمريكان

ومثلي أنا «وهمست بتواضع ـ أستغفر الله ـ» إضافة إلى عدد كبير من المظالم، وعندما انتهى من الحديث عن هذه الأمور نسبياً أرسل الأمير طاهر ليجلب بعض المطبوعات من تأليفه التي أهداها لي، وهي تبحث باللغة العربية واللغات الشقيقة لها مثل النبطية والصفوية والفينيقية، والأحرف الهجائية التي نظمها بعناية شديدة واضعاً إياها بلوحة واحدة للمقارنة على الرغم من أنه لم يكن لديه أية فكرة عن معنى أي منها خلاف لغته العربية.

والشيخ طاهر مثل نموذجي غريب للباحث الشرقي. ولكن من الأمثلة التي حصلت عليها في حديثي معه كان انسجام هؤلاء الناس الذين يحترمون السلام والنظام وإن لم يكونوا مع الوالي، وسرعان ما دخل رجل مشهور آخر، كان مصطفى باشا البرازي، وهو من عائلة البرازي إحدى العائلات الأربعة التي تتولى زعامة مدينة حماة.

وانشغل الحضور جميعاً بالحديث في شؤونهم الخاصة، مثل السياسة السورية وغير ذلك من القضايا بينما كنت أصغي وأنظر من النافذة إلى حديقة الأمير والجدول الجاري فيها، وأعجب لحسن حظي الذي قادني لقضاء هذا الصباح الدمشقي الرائع، وأخيراً أخذني الأمير عبد الله وابن أخيه جانباً وناقشا معي جدياً موضوعاً كبيراً تحدثا فيه طويلاً وكنت قد طرحت هذا الموضوع عليهم من قبل وأنا لن أكشف عنه هنا[1]، وبعد أن انتهت الزيارة ذهبتُ وسليم ومصطفى وتغدينا في مطعم دمشقي رائع في سوق الأروام جالسين جنباً إلى جنب مع بدوي من الصحراء وأكلنا أفضل طعام

(١) باعتبار أن غير ترود بل من أهم المبعوثين الإنكليز الذين ساهموا برسم الخريطة السياسية للمنطقة وفقاً للمصالح البريطانية، فأنا أرجح أن تكون قد تحدثت معهم عن إمكانية تشكيل دولة سورية مستقلة عن السلطنة العثمانية. (المترجم)

وأفضل حلوى دمشقية محشوة بالقشطة لقاء ثمانية عشر بنساً بيننا نحن الثلاثة بما في ذلك القهوة والبخشيش.

وكان ثمة صباح آخر لا يقل بهجة عن هذا الصباح وذلك عندما ذهبت مع سليم الثقة لنقدم احترامنا لعجوز رائع يعتبر من أشهر الخطاطين في المدينة واسمه مصطفى الإصبعي، وكان قاطناً في منزل مزخرف بروائع زخرفية تعود إلى مئتي سنة حفرت ضمن رخام ملون أو غطيت بالجص المذهَّب عملت واجهاتها وفقاً لنقوش فارسية مضيئة، ثم طليت بألوان ناعمة غنية كان السائد فيها الذهبي والذهبي البني.

وأخذنا عبر غرفة الاستقبال إلى غرفة صغيرة في الطابق العلوي حيث يحب مصطفى أن يحبس نفسه ويكتب تلك اللوحات الخطية التي تمثل الشرق المسلم. كان ثمة لوحات معلقة على جدران الغرفة بأيدي فنانين قدماء مشهورين وأخرى لفنانين حديثين، وقد عرفت من بينهم صديقي محمد علي ابن بهاء الله النبي الفارسي وهو في رأيي أمهر من أمسك بالقلم في وقتنا الحالي، على الرغم من أن الشهرة والامتياز قد ذهب إلى شخص آخر فارسي أيضاً من نفس الطائفة اسمه موشقين كلام الذي أعده هو الآخر من أصدقائي.

وجلسنا على الطراريح وشربنا القهوة، واستعرضنا المخطوطات الرائعة في كل التواريخ والقرون، بعضها كتب بالذهب وبعضها بالفضة، وكتب البعض على البروكار وأُخر على رق لين (بعض هذه الأخيرة صفحات من نصوص بالخط الكوفي سرقت من قبة الخزنة قبل أن تغلق)، وقبل أن نغادر أهداني مصطفى ثلاثة نماذج من عمله الخاص وحملتها معي بكل سرور.

في عصر ذلك اليوم ركبنا باتجاه وادي بردى وعرجنا في طريقنا على ولد ثالث من أولاد عبد القادر «أمير عمر برنس عبد القادر» (هكذا كتب على بطاقته المطبوعة بالأحرف اللاتينية)، كان الأمير الذي يسكن الضاحية من العائلة. ارتفع مع رياح النفوذ الكبير بزواجه من أخت عزت باشا العابد الرجل القوي خلف العرش في إستنبول. ولعبدالله دائماً ألف خطة ومشروع تحت التنفيذ تستوجب بقاءه في المدينة، ولكن عمر يهتم بالصيد والقنص ويهتم بحديقته ويعيش حياة بسيطة.

كانت بسيطة إلى درجة أننا شاهدناه يضع قبعة منزلية ومبذلاً وخفاً من القماش يتمشى في مماشي حديقته، وأخذنا إلى منزله الذي يشبه بقية منازل أسرته مزداناً بالزهور وأصعدنا إلى مقصورة على السطح حيث تبعنا كلبه بهيئة مليئة بالصداقة والود، وهناك وسط زنابق المكحلة الياقوتية والخزامى جلسنا نراقب غياب الشمس فوق الهضاب الثلجية ونتحدث عن لعبة الصحراء والرياضة.

والآن إن وجودي بين الطبقة العليا قد أنساني أصدقائي الأكثر تواضعاً، الأفغاني بخُصَل شعره السوداء المتدلية على وجنتيه، والذي يحييني كلما قابلني (لأمير أفغانستان ممثل في دمشق من أجل رعاية مصالح الحجاج الأفغانيين). بائع الحلوى عند بوابة الجامع الأموي الذي ساعدني مرة أو مرتين في المرور بشبكة ممرات السوق المعقدة، والذي يناديني كلما رآني قائلاً: «هل فخامتكِ بحاجة إلى دليل سياحي اليوم؟». أو دراويش تكية الشيخ حسان الذين دعوني لحضور صلاة الجمعة، وليس أقل من هؤلاء الفارسي ذو اللحية الحمراء الذي لديه دكان لشرب الشاي في سوق الحبوب، والذي هو عضو في

٧٤ ـ مشقين كلام (الخط البديع)

الطائفة البهائية الذين لدي بينهم عدة أصدقاء. وبينما كنت أشرب شاياً فارسياً على مائدته حييته باللغة الفارسية وهمستُ: «لقد استقبلتُ بحفاوة بالغة من قبل العائلة المقدسة في أكرا»[1]. فهز رأسه مبتسماً وأجاب:

(١) مدينة في غانا على خليج غينيا في أفريقيا.

«فخامتكِ معروفة جيداً في طائفتنا». وعندما نهضت من أجل الذهاب وسألته ثمن شايه أجاب: «بالنسبة لك ليس هناك ما يستحق الدفع.» وأنا أقسم أنه ليس هناك شيء أكثر دفئاً للقلب من أن يرى الإنسان نفسه مقبولاً في حلقة سرية من العطاء الشرقي، وأشياء مثل هذه قليلة ونادرة جداً.

هربت بعد ظهر يوم مشرق من العديد من الناس الذين كانوا دائماً في انتظار أن يأخذوني إلى هذا المكان أو ذاك، وذهبت وحيدة في جولة في الأسواق التي تعتبر من أكثر المناطق سحراً للتسكع على سطح الأرض حتى وصلت إلى بوابات الجامع الكبير، كان الوقت وقت صلاة العصر، وتركت حذائي عند الزنجي المقعد عند بوابة الجامع وتجولت في الرواق المعمد على طول الجهة الغربية من الجامع.

وقد سَلبتْ نارٌ حدثت قبل عشر سنوات، والإصلاحات التي حدثت بعد ذلك الكثيرَ من رونقه وجماله، ولكن يبقى مركز اهتمام علماء الآثار الذين يندهشون من بقايا الكنيسة والمعبد الروماني وما لا يعلم إلا الله غير ذلك من الآثار التي يمكن أن تكون مدفونة تحت جدرانه وبواباته، كانت باحة المسجد مملوءة بظل العصر وبنصف شمس، وكان عدد كبير من الأطفال الصغار يحملون بأيديهم قضباناً من الصفصاف الأخضر يركضون جيئة وذهاباً في لعب بدون ضجة في شمس العصر الذهبية في الوقت الذي كان الأتقياء يصلون تحية المسجد قبل أن يدخلوا الحرم، ودخلتُ وراءهم ورأيتهم يقفون في صفوف طويلة تحت سقف الحرم والجناح من الشرق إلى الغرب. كل أصناف الناس وطبقاتهم؛ من الطبيب الذي يرتدي معطف الفرو والثياب الحريرية إلى لباس جَمّال يرتدي أثمالاً قادماً من الصحراء؛ لأن الإسلام هو الدين

الجمهوري في العالم الذي لا يعرف التمييز بالنسبة للمنصب أو المال. وعندما بلغ عدد المصلين ثلاث أو أربع مئة بدأ الإمام التلاوة، صاح «الله!»[1] ونزل المصلون جميعاً بحركة واحدة على وجوههم، وبقوا كذلك لمدة دقيقة كاملة حتى صاح الإمام مرة أخرى وتلى: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ولا الضالين. الله أكبر» وكما تردد صدى اسم الله عبر الأروقة المعمدة منذ ما يقارب من ألفي سنة فإن المصلين الذين كانوا خاشعين صامتين خروا سجداً مرة أخرى وللحظات كان الحرم ساكناً تماماً!.

في الليل ذهبت إلى أمسية مجموعة بدعوة من شكيب أرسلان وهو درزي من عائلة لبنانية مشهورة إضافة إلى أنه شاعر، أُهديتُ نسخة من آخر قصيدة له. وقد حدثت الحفلة في حي الميدان في بيت أحد تجار الحبوب الذي هو عميل لدروز حوران من أجل بيع الحبوب، وهو على دراية جيدة بالوضع السياسي في الجبل. كان عدد الحضور يتراوح بين اثني عشر إلى أربعة عشر، أنا وشكيب وتجار الحبوب يرتدون ثياباً تدل على الثراء، ثياب حريرية زرقاء، وعمائم درزية مزخرفة.

وآخرون أعرفهم. كانت الغرفة فارغة إلا من بُسط وديوان وموقد من النحاس، وهذا أمر جدير بالملاحظة؛ لأنه حتى بيوت الأمير عبد القادر ليست خالية من مزهريات زجاجية زرقاء وحمراء وحُصر مزركشة ذات أهداب، والتي تبرز مثل نتوءات عرضية بشعة في الكوى الرخامية، وعلى رفوف

(١) ذكرتُ هنا ما كتبته المؤلفة بدون تعديل والحقيقة أن الإمام يقول: (الله أكبر) وليس (الله) منفردة، كما أخطأت في وصف الصلاة ونسيت مرحلة الركوع، وأخطأت بتلاوة الآية.

الخزائن المجصصة والمذهبة كان شكيب رجلاً مثقفاً وذا خبرة في الحياة وعرف العالم، وقد سافر مرة بعيداً حتى لندن، وأخذ يتكلم باللغة الفرنسية حتى أوقفه أحد مضيفينا قائلاً، ايه شكيب أنت تعرف اللغة العربية والسيدة كذلك، تكلم حتى نفهم عليكم.

كانت وجهة نظره بالسياسة الروسية تستحق السماع. «يا أصدقائي» قال: «المساوئ التي نعاني منها تعود للأمم الأجنبية التي ترفض السماح للإمبراطورية التركية بالتحرك بأي اتجاه، فعندما تقاتل يقطفون ثمر انتصارها كما فعلوا بعد حربها مع اليونان، ما الفائدة من قهرنا للثوار الألبان، لأن البلغاريين فقط سوف يقطفون الثمرة وأتباع نبينا لن يستطيعوا «هذا حرفياً رغم أنه درزي» أن يعيشوا تحت سلطان البلغاريين، كما لم يستطيعوا أن يعيشوا تحت نير الإغريق في كريت، انظروا إسلام كريت الآن يقطنون الآن في الصالحية كما تعلمون جيداً وتعاني كريت من هجرتهم».

يوجد مقدار كبير من الحقيقة في هذا الكلام بحيث رغبت وأنا أسمع هذا الكلام لو أن أكراد تركيا تمكنوا من سماع هذا الكلام، وتفكروا ملياً بوجهة النظر هذه التي يقدمها رجل مثقف وحسن الإطلاع على أوضاع الإمبراطورية العثمانية.

كان يومي الأخير في دمشق يوم جمعة. ولدمشق في يوم جمعة ظريف كهذا اليوم منظر يستحق أن يرحل الإنسان من بلاد بعيدة لمشاهدته، جمهور كبير من الذكور يرتدون أفضل الثياب، يخطرون بالشوارع متنزهين، بائعوا الحلوى، ودلالوا الثياب المستعملة ينادون علي بضائعهم بصوت عال، ودكاكين المطاعم تتصاعد من قدور طعامها الجاهز أبخرة أروع الأطعة المغرية، والخيول الرائعة ذات السروج المزركشة تتراقص على طول الطريق بجانب نهر بردى.

في وقت مبكر من بعد الظهر جاءني زوار متميزون، كان أولهم محمد باشا الجيرودي شيخ جيرود، وهي واحة على منتصف الطريق بين تدمر ودمشق.

٧٥ ـ بائع الحلوى

والجرودي هو ثاني أعظم قطاع الطرق في المنطقة (لا أحد يشك بهذا اللقب)، وقاطع الطريق الأول هو فياض آغا من بلدة القرتين وهي واحة أخرى على الطريق بين دمشق وتدمر. وأنا أتخيل أن فياض آغا شرير محتال على الرغم من أنه كان مؤدّباً معي عندما مررت بطريقه، أما الجيرودي فمخادع من صنف آخر، وهو رجل ضخم قوي البناء بعين حولاء، وربما كان فارس زمانه ومن أكبر الغزاة؛ لأن ثمة دماءً عربية تجري في عروقه، كما أن جده كان من شيوخ عنزة، ولكنه طعن في السن ويعاني من النقرس وثقل الجسم، وأصبح يتوق إلى السلام، والسلام صعب المنال؛ فانحداره من أسلاف محاربين، وموقع جيرود على أطراف البادية، الأمر الذي يجعل منها الملجأ الطبيعي لروح الصحراء العصية على الترويض، وهو مضطر لأن يكون على علاقة طيبة مع عشيرته العربية من جهة ومع الحكومة من جهة أخرى، وكلا الطرفين يحاول

٧٦ ـ فناء الجامع الكبير (جامع بني أمية)

أن يستفيد من نفوذه بعلاقته بالآخر. كما أنه من جهته يحاول أن يستفيد من الجهتين وهو ينظر بعينه الحولاء باتجاه متطلبات القانون وعينه السليمة مثبتة على مصالحه الخاصة. إذا كنت قد أحسنت فهمه. ولطالما طلب القناصل الغاضبون وعدة مرات من الوالي أن ينصفهم من الجرودي، ولكن الوالي رغم إشارته غير مرة على عدم موافقته على بعض أعمال الجيرودي المخالفة للقانون بشكل واضح، والحديث عن السجن لم يُتخذ أبداً هذه الخطوة النهائية قائلاً: إن الحكومة ترى أن الجيرودي رجل مفيد، ولا شك أن الوالي خير حكم.

ويأسف محمد الجيرودي كثيراً؛ لأنه ليس له أولاد ذكور حتى يرثوا ثروته الكبيرة، وقد أحاطت الجنادب ممثلين بقبيلة من أبناء أخوته وأخواته لتشكل عبئاً فوق عبء السنين. وقد تزوج حديثاً من فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها من عائلة الفياض، ولكنها لم تنجب له أطفالاً. وهناك قصة مشهورة شائعة في دمشق وهي حكاية لا يجري الحديث فيها بحضوره وهي

٧٧ ـ أرض البيادر في القرتين

أن الجيرودي أراد ـ أثناء حرب الثورة الدرزية الأخيرة ـ أن يُعبّر عن إخلاصه للسلطة، وحيث إنه يعرف الجبل جيداً فقد أُرسل بمهمة استطلاع مع ثلاثين أو أربعين رجلاً، وسار الجيش خلفه، واتفق أن مرّ على قرية صغيرة قرب عرمان، ورآه شيخ القرية وهو على معرفة سابقة به فدعاه إلى طعام، وبينما كان جالساً في المضافة ينتظر غداءه سمع الدروز يتناقشون خارجها فيما إذا لم يكن من الأفضل اغتنام الفرصة لقتله باعتباره ضابطاً في الجيش التركي.

فأراد جدياً الخروج منها، ولكن قواعد اللياقة الاجتماعية تلزمه بالبقاء وأكْل الطعام الذي كان يُعد له على النار؛ ولذلك فقد أكل طعامه بسرعة عندما قُدّم إليه؛ لأن المناقشة خارج المضافة وصلت إلى نقطة أشعرته بقلق كبير، وما أن أنهى طعامه حتى ركب حصانه بسرعة وخرج سريعاً قبل أن يصل الدروز إلى قرار، وما أن ابتعد حتى وجد نفسه بين نارين؛ لأن الجيش التركي

كان قد وصل والمعركة الأولى في الحرب قد بدأت، وخاف هو ورجاله كثيراً وارتبكوا والتجؤوا خلف بعض الصخور بقدر ما استطاعوا، ثم انسحبوا واحداً إثر آخر إلى مكان بعيد في مؤخرة الجيش التركي. وقد ألَّف الدروز شعراً حول هذه الحادثة، وهي تبتدئ على النحو التالي:

فرس الجيرودي مشهورة

جميلة وخيالها هرب مثل الطير

محمد باشا خبر دولتك

أين أصبح جنودك أين أصبح سلاحك.

ولا تُغنى هذه القصيدة أمامه.

كان زائري الثاني في هذا اليوم الشيخ حسان النقشبندي وهو ذو وجه يعكس المكر والدماثة، وقد استنبط وسيلة للاستفادة من الدقائق العشر التي قضاها في بهو الفندق لأخذ خاتم مبهرج رآه بإصبع سليم بك، حيث سأله رؤيته، فأعجب به إلى درجة أنه وضعه في جيبه قائلاً: إن سليم لابد أنه يرغب في تقديمه هدية لأصغر زوجاته التي تزوج منها في العام الماضي أو الذي قبله، فأجاب سليم: إنه في هذه الحالة يجب أن نذهب فوراً إلى منزل النقشبندي في الصالحية حتى تقدم الهدية، وكانت عربتا حسان ومحمد باشا من طراز فيكوريا واقفتان بالباب فركبنا نحن الأربعة بهما وسقنا باتجاه الصالحية عبر الشوارع المبتهجة بشمس الجمعة المشرقة، وعندما وصلنا باب المنزل قال سليم: عليّ أن أستأذن الوالي الذي يسكن في الجوار بالسفر، وأن أستعير عربة الجيرودي؛ لأننا يجب أن نذهب بأبهة، ثم التفت إلى محمد باشا

obeikandi.com

قائلاً: «ألن تأتي معنا؟» وقد صيغ السؤال بلهجة تهكمية؛ لأنه كان يعرف أن الجيرودي يمر بمرحلة إبعاد عن السرايا، وأنه قد خرج منذ فترة قريبة من السجن بعد أن أمضى عقوبة يستحقها.

٧٨ ـ التكية النقشبندية. أو تكية السلطان سليم

وهز الجيرودي رأسه واقترب منا ونحن جلوس في عربته وهمس: «قولوا شيئاً بالوساطة بيني وبين الباشا»، ووعدنا أن نتكلم من أجله، مع أن سليم أفضى إليّ ونحن نبتعد، إنه عندما كان مُبعداً عن السراي ـ وكان الموضوع بمجمله نتيجة لكيد أعدائه ـ لم يتقدم أحد لمساعدته، أما الآن وبسبب جودة وضعه فإن الجميع يرجون وساطته. ولفّ نفسه بمعطفه وتصدر إلى الوراء مستنداً إلى وسادة عربة الجيرودي شأن الفخور بنفسه المدرك أنه في موقع يستطيع أن ينجز ما يطلب منه إلى أبعد مدى.

كان ناظم باشا واقفاً عند باب قصره يودع القائد العام للجيش، وعندما رآنا نزل درج قصره ودعانا للدخول بأقصى درجات الترحيب واللطف، وكانت

هذه زيارتي الثانية لقصره، وقد كانت أقل تقيداً بالرسميات من الأولى، وتحدثنا عن الحرب اليابانية وهو موضوع لا ينفك محاوري على التحدث به قليلاً أو كثيراً، سواء أكان ذو منصب عال أو إنسان عادي، وتجرأت وسألته عن رأيه فقال: «رسمياً أنا على الحياد».

«ولكن بيننا كأصدقاء؟»

«طبعاً أنا مع اليابانيين» أجاب، ثم أضاف: «أأنتم الطرف الذي ربح من انتصارهم».

وأجبت: «ألم تربحوا أنتم أيضاً؟»

فأجاب بحزن: «نحن لم نربح شيئاً حتى الآن ولا شيئاً في مكدونيا».

ثم سألني إذا كنت قد تمتعت بزيارتي إلى دمشق..

فأجاب سليم بسرعة:

«لقد أصيبت بخيبة أمل كبيرة اليوم..»

وبدا الوالي مهتماً

«نعم» تابع سليم: «لقد أمّلت أن ترى زعيم قطاع الطرق، فلم تجد إلا شخصاً راغباً في السلام من سيادتكم».

قال الوالي: «من هو؟»

أجاب سليم: «محمد باشا الجيرودي».

لقد عُرضت الكلمة الطيبة بأسلوب ماهر جداً.

obeikandl.com

عندما عدنا إلى منزل الشيخ حسان أعدنا الحديث كما جرى عن الجيرودي الذي زوى وجهه تعبيراً عن الإستياء، ولكنه عدّ نفسه قانعاً بما حصل. ثم أخذني الشيخ حسان لأرى زوجته الخامسة حيث كان قد طلّق واحدة، لئلا يتجاوز النصاب المسموح به وهو أربع. وكان من الحصافة بحيث وضع كل واحدة منهن في بيت منفصل عن الأخريات.

٧٩ ـ خارج أبواب دمشق

ولم أحاول أن أستفهم فيما إذا كان قادراً على تأمين السلام حول موقده. كان هناك ثلاث نسوة في الغرفة الداخلية.. الزوجة وامرأة أخرى بدا واضحاً أنها ليست مدبرة القصر؛ لأنها غطت وجهها بملاءة الفراش عندما دخل الشيخ حسان إلى الغرفة، والثالثة مسيحية تقوم بالخدمة للضيوف من الرجال (وهناك أخريات عند الجيرودي وسليم)، والذهاب إلى السوق حيث تستطيع أن تتحرك بحرية أكثر من أختها المسلمة. كان حريم الشيخ غير مرتبات على نحو ملفت للنظر، ولم تكن النساء يتوقعن زيارة ويتهيأن لها، فلا يوجد منظر أكثر إهمالاً وشعاثة من منظرهن، ولعل فوضى غرفهن اللواتي يعشن فيها يعود إلى عدم وجود خزائن أو دروج فيها، وكل مقتنيات المرأة وحاجاتها موجودة في صندوق كبير ملون باللونين الأخضر والذهبي الذي يجب أن ينكث الإنسان جميعه عندما يحتاج إلى تناول أي حاجة منه ولْنَقُلْ

منديلاً. ثم يبقى بعد ذلك غير مرتب على الأغلب. كانت زوجة حسان شابة وجميلة على أن شعرها يتدلى خصلاً حول وجهها ورقبتها وهي ترتدي عباءة منزلية وسخة على جسد يبدو وكأنه قد أمسى حطاماً.

ولكن المنظر من شرفة النقشبندي لا ينسى، دمشق العظيمة الرائعة بحدائقها وقببها ومآذنها تنتشر منبسطة في الأسفل وخلفها الصحراء التي تصل إلى بواباتها تقريباً، وفي هذا المكان لب كل المسألة.

هذا كل ما أعرفه عن دمشق أما بالنسبة لكنائسها وقلاعها فإن الجماعة التي تهتم بها تستطيع أن تشاهد ذلك بنفسها.

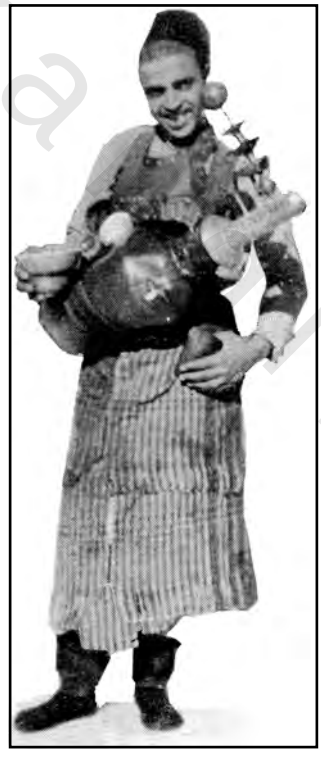

٨٠ ـ السقاء. بائع الماء